مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ـ المجلد ١٠ (العددان ١و٢) ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م

شكسبيـــر بيـــن الوجـود والعـــدم

الدكتـور طـــارق مصلـــح
مدرس فـي كليـــة الآداب والعلوم الإنسانية
جامعـــــة دمشـــق

يعـالج هذا الموضوع مشكلة الوجود والعدم عند وليام شكسبير ، ويركز على أعمالـــه التي تبحث عن هوية الإنسان ومحاولته إيجاد معنًى لحياته ، ثم يتطرق إلى فكرة التحـــرر من الوهم التي يعـاني منها كثير من شخوصه، مما يؤدي في بعض الحالات إلى حالة الشلل الأخلاقي والرغبة في الموت . إن شكسبير يظهر دائما في تراجيدياته صعوبة تأقلم الإنسان مـــع واقعه المرير الذي يتحدى باستمرار قيمه السامية . أضف الى ذلك أن كثيرا من أعمـــال شكسبير تجسد فكرة الزمن الذي يحيط الإنسان بالخوف،وفكرة الطبيعة الممثلة بالظروف القاهرة التي تحد من سعادة الإنسان،وتحطم آماله وطموحاته . والمشكلة الأكثر تعقيدا هي عندمـا يبحث شكسبير في طبيعة النفس البشرية ودوافعها الأنانية،وفي أعباء الوعي الإنسانـــي . فالسؤال الذي يطرحه شكسبير ـ خاصة في أعماله الأخيرة ـ هو كيف يستطيع الإنسان أن يعمل حينما يدرك أنه محاط بالشر من الداخل والخارج ؟! ورغم كل هذه المصاعب فإن شكسبير يصرّ على مبدأ الالتزام،ويعمل على أن تتبنى شخوصه فكرة التفاعل الخلاق مع الظروف المحيطـــة بها، ويدفع بهذه الشخوص إلى تحقيق القيم الإنسانية الخالدة بغض النظر عن العواقب وآثارها.

قد يبدو عنوان هذا المقال غريبـــا بعض الشيء ، ذلك أن الوجود والعدم مسألتان نابعتان من مذهب فلسفي من نتاج هـــذا العصر الذي حقق فيه الانسان أشواطا بعيدة في مجال التكنولوجيا والعلوم المختلفـــة، ولكن رافق هذا التقدم تشتت وضياع، وأيّ ضياع ؟ فهوية الانسان نفسه في حالـــة خطر بسبب تأرجحه بين غريزة البقاء وبين رغبة جامحة في انحلال واندثار أعبـــاء الوعي الانساني .

حياة الانسان العصري الآن ـ وخاصة في الغرب ـ معقدة أشد التعقيد ، وليـــس من قبيل الصدفة أن ينشأ مذهب الوجوديـــة Existentialism ليعكس ، فيمـــا يعكس ، خوف الانسان من شعور قاتل بالفراغ والضياع يجعله أحيانا يتمنى الموت،ويفضل حالة العدم على الوجود ... كما يبلور ذلك مثلا أحد الشعراء المحدثين، بقوله :

A desire for oblivion runs
رغبة في الفناء تسري في عروقي ...(١)

شكسبير والوجودية :

أن نمذهب شكسبير William Shakespeare
(1616 - 1564)

بالوجودية قد يكون في ذلك بعض المبالغة وشيء من فرض التمذهب على كاتب يصعب تصنيفه، لأنه خاض في كل المواضيع، وأرضى جميع طبقات المجتمع في مسرحياته وأشعاره . بيد أن المتتبع لهذه الأعمال يرى أن وراءها نفسا بشرية حائرة ممزقة بين السعي لارضاء متطلبات الحياة اليومية ، وبين رغبة ملحة في الفناء ، قد يكون سببها أعباء الحياة بشكل عام ، وخيبة الأمل في الطبيعة البشرية وفي محدودية الانسان بشكل خاص . ان ذلك الصراع الذي أشرنا اليه كثيرا مايؤدي في أعمال شكسبير - وخاصة في تراجيدياته - الى اثارة الشكوك حول هوية الانسان وحول هدف الحياة وايجاد مغزى لها ، حتى وان لم يكن موجودا ، مما يغرينا أن نقرب بين هذا الكاتب وبين الوجوديين .

واذا كان سارتر Jean paul Sartre وهو أحد أقطاب الوجودية في عصرنا هذا يعتقد أن مبدأ ديكارت "Cogito ergo sum " أنا أفكر ، إذاً أنا موجود ..." هو الحقيقة الأساس للوجودية ، فان شكسبير ، قبل ديكارت أشار بشكل شاعري الى حالات مماثلة شكك فيها "أشخاصه " بوجودهم وهدف حياتهم ، وعبروا عن رغبة جامحة - بل حاجة في بعض الأحيان - في الانتحار في عالم الفناء ، ورغم ذلك فان أغلب تلك الشخصيات كانت تبحث بشكل متواصل عن غاية تمكنها من الاستمرار في الحياة على أسس ترضي ضمائرها ، وتتناسب مع خبراتها.

ولقد هزّ الملك لير King Lear العالم الأدبي حوله حينما تساءل متحديا:

Who is it that can tell me who I am ?

" من الذي يستطيع أن يخبرني عن هويتي !

ان هذا التساؤل وغيره ، يجعلنا نرجح أن شكسبير خاض تجربة وجودية عميقة جعلته يشكك في عالم الموجودات ، وأحيانا في " غائيتها" Teleology

كما أن الملك ريتشارد الثاني في مسرحية Richard II عبر عن حالة الضياع التي تقمصته :

Sometimes am I King :
Then treasons make me wish _
myself a beggar,
And so I am . Then crushing_
penury
Persuades me I was better when_
a king
Then I am king'd again; and by_
and by
Think that I am unking'd by_
Bolingbroke,
And straight am nothing. But_
whate'er I be,
Nor I,nor any man that but man-
is,
With nothing shall be pleas'd_
till he be eas'd
With being nothing .

" كثيرا ما أتساءل : أكون أنا الملك ؟.. عندها ، تجعلني الخيانات أتمنى نفسي أن أكون شحاذا .

وهكذا أحقق أمنيتي؛ بيد أن الفقر المدقع يقنعني أنني كنت أفضل عندما كنت ملكا ، وهكذا أكون ملكا ثانية ، وعما قريب أفكر أن " بولينغبروك Bolingbroke سيخلعني .

وهكذا في الحال أصبح لاشيء. ولكن مهما أكون ...

فلا أنا ، ولا أي انسان آخر أيّا كان ، لن يسره أي شيء ... حتى يكون مرتاحا بكونه لاشيء. .... "

إن التوازن الدقيق للعبارات" أأكون أنا ، أنا أكون ،ملك ،لاملك ..." يقود ريتشارد الى مواجهته الأخيرة لهذا التعرّف على " اللاشيء" Nothingness الذي يراه متأصلا في الحالة الانسانية بشكل عام .

وتأكيدا لذلك يرضخ ريتشارد لتقبل هذه الحقيقة ، أما خصمه " بولينغبروك"فيحاول تجنب هذه المواجهة بملاحقته للسلطة ،... وأخيرا يدرك الملك الذي يخلع مباشرة أن كلا الطريقين يلتقيان بالاذعان المشترك الى نوع من الوهم .

وهكذا ف" اللاشيء" هنا يسيطر على كل شيء في حياته الشخصية الرئيسية ،وينظر اليه على انه نقطة الخلاص من أعباء حياة يصعب تحملها .

وليس أدل على خيبة أمل شكسبير في الحياة من هذه النفثات الشعرية التي يتلفظ بها"ماكبث"والتي تعتبر من عيون الشعر الانكليزي ،في صورها الابداعية وعمق فلسفتها :

Life's but a walking shadow ,-
a poor player,
That struts and frets his hour-
upon the stage,
And then is heard no more; it-
is a tale
Told by an idiot, full of sound-
and fury,
Signifying nothing .

"ما الحياة غير خيال يمشي ،... انها ليست
أكثر من ممثل بائس يحتال ويتعثر في
ساعة على المسرح .....
وبعدئذ يتوارى
انها قصة رواها أحمق
قصة مليئة بالضجيج والغضب
ولا ترمز الى أي شيء ... "

ومما لاشك فيه أن هذه الأبيات تتطابق مع خبرة "ماكبث" السلبية في المسرحية ،ولكن شكسبير يضع ثقله الأدبي وعمقه الفلسفي وراء هذه الأشعار التي تصور الحياة كطيف ،.. ساعاته معدودة ،..يتأرجح بين تقلبات الزمن،وينتهي به المطاف الى بؤرة الفراغ القاتل و" العدمية" Nihilism الساحقة .

فما الحياة عند "ماكبث" الا شمعة خافتة الضوء ،الخلاص يتم عند اطفائها :

Out , out ,brief candle

"انطفئي ..،انطفئي .. ،أيتها الشمعة القصيرة الأجل ".

هنا يعبر "ماكبث" عن نفس معذبة تتوق الى الخلاص ،وليس لديها أي أمل في الاستمرار في حياة قتلها الطموح والانصياع الى اغراءات السلطة ،.. وكأني بماكبث قد وصل الى ماخلص اليه فيلسوف المعرّة قبل شكسبير بعدة قرون :

تعب كلها الحياة فما أعـ
جب الا من راغب في ازديـاد
خفف الوطأ ما أظن أديـم الأ
رض إلّامن هذه الأجسـاد

وان الباحث ليجد الكثير من التقارب الفكري بين أبي العلاء وشكسبير ،خاصة من ناحية حرص الكاتبين على الحذر من الاندماج في حياة مليئة بالمغريات الفانية .

ولعل الأسباب التي قادت شكسبير الى تكوين هذه الرؤية التراجيدية"Tragic vision" ذات الطابع الوجودي تتعلق بشكل رئيسي بمعرفة الطبيعة البشرية ومدى محدوديتها والدوافع الحقيقية للانسان التي تكمن حتى وراء عمل الخير، أضف الى ذلك الصعوبات والعقبات المتعددة التي تقف أمام طموح الانسان .

لقد أدرك شكسبير ،منذ شبابه ، أن على الانسان أن يرضخ للحلول الوسط،وأنه لايمكنه أن يقف أمام تيار الزمن وأمام تحديات الطبيعة ،... وهنا تكمن مأساته .

ففي مسرحية " جهد الحب الضائع "
Love's Labour's Lost يصل بيرون
Berowne احد رجال البلاط الى هـذا
الاستنتاج العملي Pragmatism
الذي يعبر في الواقع عن أخلاقية المسرحية
ككل :

Let us once lose our oaths to-
find ourselves,
Or else we lose ourselves to-
keep our oaths .

اذا أردنا أن نحقق ذواتنا ،فعلينا
أن نتخلى عن عهودنا، والاّ فيجب أن نضيّع
أنفسنا في سبيل المحافظة على هذه العهود
ألا تكمن مأساة الانسان في عدم
قدرته على تحقيق ذاته الاّ على حساب
مبادىء أخرى قطعها على نفسه ؟!
أليس من الظلم أن يفقد الانسان ذاته
ليعيش حياة " حرة " كريمة ترضي الآخرين ؟!
أي وجود هذا الذي يستحيل فيه التوفيق بين
ذواتنا وعهودنا ؟!
كل هذه التساؤلات جعلت شكسبير يدرك
أن على الانسان أن يحد من طموحه ،ويتقبل
الواقع المرير المفروض عليه .
ومأساة الوجود لاتقف عند هذا الحدّ،
بل على الانسان أن يتحمل وطأة الزمن التي
قد تسحقه وتحطم أغلى شيء عنده :

Against my love shall be as I-
am now ,
With Time's injurious hand-
crush'd and o'erworn...

" وكما هي حالتي الآن ، فان حبي
ستسحقه وتحطمه يد الزمان الغادرة ! "
والجدير بالذكر أن هذه " الموضوعة "
المتعلقة بمفهوم الزمن الغادر كانت شائعة
بين الكتّاب في العهد الاليزابيثي
Elizabethan Era الذي عاش
فيه شكسبير ، غير أن معظم كتّاب ذلك
العصر كانوا يربطون هذه الموضوعة بشعرهم
الغزلي ، وذلك بنصح " المحبوبة " عادة
أن تستغل شبابها قبل أن يدركها الزمن
" وينحت " تدريجيا من جمالها .
أما شكسبير ، فكان يضفي على هذه
" الموضوعة " طابعا فلسفيا يربطه بوجود
الانسان نفسه وبمدى تأثير مفهوم الزمن
على كينونته . فعامل الزمن يحيط الانسان
دائما بالشعور بالخوف والقلق، مما يزعزع
وجوده ويحرمه الاطمئنان والأمان .
واذا كان للزمن هذا التأثير السلبي
على حياة الانسان،فان للطبيعة الممثلة
بالظروف القاهرة التأثير الأقوى على هدم
حياة الانسان واستئصال الجذور التي تجعله
يصبو الى حياة هنيئة تحقق آماله .
ففي مأساة روميو وجولييت
Romeo And Juliet تعاكس الظروف
دائما نوايا الشخصيات الرئيسية في
المسرحية ، .... تلك الظروف التي لايستطيع
الانسان فهمها ، ولا الحدّ من تأثيرها :

A great power than we can-
contradict
Hath thwarted our intents.

هناك قوة أعظم مما نستطيع أن نعارض
قد أعاقت تحقيق نوايانا .... "
ان موت روميو وجولييت في النهاية
يمثل مأساة الانسان الحقيقية وعجزه عن أن
يقف أمام " قدر " ظالم لايمكن الحدّ
من قدرته الهدامة .
فكيف يحقق الانسان ذاته،ويتجاوب مع
محيطه ضمن هذه القيود الزمنية والطبيعية ؟
والمشكلة الأعوص ، هي أن " يعي" الانسان
أبعاد كل شيء حوله ، ويدرك الحقيقة
المرة التي تشير دائما الى وجود يحيط به
السأم والفراغ احاطة السوار بالمعصم .
ويصل شكسبير الى ماوصل اليه من قبله
زميله المتنبي ، بأن :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فكلما ازدادت معرفة الانسان عظم شقاؤه ،وقلت سعادته . ويمثل هذه الفكرة بشكل رمزي شخصية الأعمى في مسرحية الملك لير :

I have no way, and therefore—
want not eyes ;
I stumbled when I saw

" ليس هناك من طريق أمامي ،وعليها فلا أريد أعينا " ...

"لقد تعثرت عندما كنت أرى .."

ان"الرؤية" تعبر هنا كناية عن معرفة الأشياء على حقيقتها.. الحقيقة الأليمة المرتبطة بمحدودية الانسان وفساد طبيعته وقصوره أمام زمن غادر وطبيعة قاهرة وظروف تتربص له بالدوائر .

انها ذات الرؤيا التي جعلت "كورتس" Kurz أحد الشخوص الرئيسة في قصة " قلب الظلام" Heart of Darkness لجوزيف كونراد Joseph Conrad يصرخ مذعورا في نهاية حياته :

"The Horror, the Horror "

" ياللهول ،.. ياللهول "

ذلك لأنه تمكن أن يرى فيما رأى،... قلب الانسان المظلم على حقيقته .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن،هو: ماهي فائدة القيم الانسانية ضمن نفس بشرية محاطة بالظلام من الداخل ومن الخارج؟ ماذا يستطيع هاملت Hamlet أن يفعل وهو غير متأكد من أي شيء " داخله " و"خارجه"؟ دوافعه قد لاتكون سليمة .. وقد تشوبها عقدة أوديب Oedipus Comlex (٢) كما لاحظ بعض النقاد .

أمّا عالمه الخارجي ،فيزخر بأناس فاسدين أعمتهم السلطة عن كل شيء. ماذا حدث حينما قرر هاملت أن يعمل ؟ هل أصلح العالم الذي حوله ؟.. واذا كان الجواب بالنفي ،فهل من مبرر أخلاقي لأن يستكين ويتقبل وجوده السلبي؟. ربما لايكون هاملت قد حقق أي شيء بعمله،ولكنه ،مع ذلك،عليه أن يعمل ويعمل ويعمل ليعبر عن نفسه ويحقق ذاته ،فلا يمكن لأي انسان أن يحقق ذاته دون عمل .

ويتوهم بعض الوجوديين " السلبيين" أن الانسحاب من الحياة هو الحل الأمثل أمام التحديات المتعددة الماثلة أمام الانسان، ولكن أي وجود هذا الذي يشل حركة الانسان ويجعله هيكلا لاحراك فيه !!؟.

لاشك أن الانسان المتعقل لايندمج كلية في الحياة، ويكرس وجوده للركض خلف المغريات الفانية ،ولكن هذا لايعني أن على هذا الانسان أن يستكين للزمن ويعلن" افلاسه ".

ان معظم الوجوديين يصرون على فكرة " الالتزام" Commitment حتى ولوكان هذا الالتزام شخصيا يتعلق بفردية الانسان. وإن أي متصفح لأعمال شكسبير ،يدرك أهمية مبدأ الالتزام بالنسبة لشخوصه .

الحذر مطلوب والعاقل يتعلم دائما بأن عليه أن يردد مع الشاعر الفيلسوف الذي قال

خفف الوطء ما أظن أديم الأ
رض إلا من هذه الاجساد

ولكن في الوقت ذاته على الانسان العاقل أن لايرضخ نهائيا لليأس والقنوط .

واذا كانت بعض شخصيات شكسبير تعبر عن رغبة في "الفناء" فان ذلك ماهو الا " تأوهات ونفثات" ناتجة عن وطأة الواقع ليس غير.

وحتى الشخصيات التي تموت في أعماله من أمثال " هاملت " لاتموت الا وقد أدت دورها في الحياة،وحاولت أن تستجيب لتحديات الزمن .

ان الملك لير – رغم كل شيء – أدرك

أن الحل الوحيد لمشكلة الانسان، يكمن في الاستجابة الى خبرة مفعمة بالحياة .وشكسبير نفسه ،لولا ايمانه " بتغيير "(٣)المجتمع من قريب أو بعيد لما كتب أعماله .لقد كان كاتبا من المكثرين في الانتاج الأدبي، وكان يعرف أنه بكتاباته هذه يؤدي رسالة انسانية خالدة تهز صيحاتها كيان الوجود الانساني، وتدعوه الى التفاعل مع الحياة وفي الوقت نفسه ،فان هذه الرسالة تحض الانسان على التفاعل مع الحياة ،والالتفات الى الجانب الشاعري منها، ... ذلك الجانب الذي يدعو الى التأمل في حقيقة الأشياء وتفحصها دون تهور واندفاع .

وبعد ..... ان شكسبير لايريد أن يكون الانسان مجرد متفرج على الحياة كما لا يريده أيضا أن يكون منصاعا كلية الى متع فانية على حساب أخيه الانسان، وعلى حساب مبادئ سامية لو اتبعها البشر لما وصل الانسان الى ماهو عليه الآن.لاريب أن شكسبير ليس منظرا فى علم الاقتصاد أو الاجتماع ،ولكنه شاعر حزّ فى نفسه أن يستغل البشر بعضهم ،وأن يتنازلوا عن مبادئهم في سبيل ارضاء أنانيتهم وغرورهم وغرائزهم الحيوانية . ولعمري قلة هم الذين استطاعوا أن يهزوا الضمير الانساني كما فعل شكسبير في أعماله الخالدة .

This essay deals wi th Shakespeare's own concept of existentialism'. It is particularly concerned with those works which explore the identity of man and his attempt to find a meaning for his life . It also discusses the question of his characters' disillusionment which sometimes results in their moral paralysis and death wish . Shakespeare always concentrates in his tragedies on man's difficulty to adapt himself to his unpleasant environment which continuously opposes his principles and values .

Moreover many of shakespeare's works embody the ideas that time is destructive, that nature is cruel and that hard circumstances are bent on crushing man's hopes and ambitions. The real dilemma is when Shakespeare explores man's inner nature and examines his selfish motives in whatever he does ; the ultimate question is how can man act when he realises he is surrounded by evil inside and outside himself ?! In spite of all these difficulties Shakespeare believes in 'commitment' and his characters always insist on action and on preserving their human values regardless of the consequences.

الهوامش

١- جميع الترجمات الواردة في هذا المقال قام بها كاتب هذا البحث .

٢- حينما أراد الانتقام من عمّه الذي هو زوج أمه .

٣ - المقصود هنا : التغيير الشاعري بمعنى التأمل الذي قد يقود الى تعديل بعض المواقف .

المراجع
References

1- E.A.Armstrong,Shakespeare's Imagination(London,1946)

2- B.Ford(ed.),The Age of Shakespeare ,Vol.2(Of the New pelican Guide to English Literature),Penguin Books (England, 1982)

3-H.Landry, Interpretations in Shakespeare's Sonnets (Berkeley,Ca.,1963);ed New Essays on Shakespeare's Sonnets (New york,1976)

4-F.R.Leavis,The Griticism of Shakespeare's Late Plays: A Caveat, and 'Measure for Measure' both in The Common Pursuit (London, 1952)

5- T.Spencer, Death and Elizabethan Tragedy(Cambridge 1963)

6- B. Spivack, Shakespeare and the Allegory of Evil(New york, 1958